

شؤون عربية

كلمة العدد الامين

الاجتياح

- * الاجتياح الاسرائيلي بين الأهداف والنتائج
- * اسرائيل في مواجهة الانتفاضة
- * من يوميات حرب العولمة

تحديات ثقافية عربية

- * نزعات السيطرة وأثارها على حرب الثقافات
- * صورة العربي في الغرب
- * تطور الثقافة العربية الإسلامية في ظل العولمة

فنون وآداب عربية

- * عرب هنا وعرب هناك يعذبهم حلمهم العربي
- * الموسيقى العربية بين التراث والحداثة
- * السينما العربية بين اليوم والغد

درسات * تقرير * كتب * وثائق

الموسيقى العربية بين التراث والحداثة

د. صالح المهدي (*)

مؤلف وناقد موسيقي تونسي

لقد كان المؤتمر الأول للموسيقى العربية الذي انعقد بالقاهرة سنة 1932 منطلقا لبعث روح جديدة في الشعب العربي وخاصة في الشباب المثقف الذي اطلع على مدى اهتمام الحكومات الأوروبية بالموسيقى وبالقائمين عليها ونتج عن ذلك تأسيس جمعية الموسيقى الأندلسية بالمغرب والجمعية الموصلية بالجزائر والراشيدية بتونس ومعهد الفنون الجميلة ببغداد والمعاهد الموسيقية لكل من دمشق وبيروت وحلب، علاوة عن معهد الموسيقى الشرقية المؤسس في بداية القرن العشرين بالقاهرة .

ويعد ان تخلّصت الأقطار العربية تباعا من ريقة الاستعمار قامت أغلب الحكومات بحركات مباركة في العناية بالموسيقى بوجه عام والموسيقى العربية بوجه خاص .
وبناء على ذلك عنيت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في بداية الستينات من القرن العشرين بالتفكير في تنفيذ احدى توصيات المؤتمر الأول للموسيقى العربية القاضية بتأسيس مجمع عربي للموسيقى وأرسل صديقنا المرحوم الدكتور محمد أحمد الفني الأمين العام لذلك المؤتمر للتجوّل عبر البلدان العربية لدراسة مدى تقدمها في خدمة الموسيقى العربية وحماسها لتأسيس المجمع المذكور، وبعد اجتماعات ومؤتمرات في كل من القاهرة وبغداد وفاس وطرابلس تعاونت فيها مع الدكتور الحفني تأسس المجمع وكان لي شرف رئاسته في دورتين مدة ثمان سنوات، كان أثناءها الدكتور الحفني رئيسا فخريا للمجمع ودخلنا غمار العمل في شتى ميادين النهضة الفنية، وهذا ما جعلني استجيب باعتزاز للدعوة الكريمة للمساهمة في مجلة جامعة الدول العربية شؤون عربية" بمقال فني حول "الموسيقى العربية بين التراث والحداثة".

(*) رئيس نادي زرياب للموسيقى العربية - تونس

أول لقاء بجامعة الدول العربية سنة 1964 للحوار في تاسيس مجمع للموسيقى العربية يتوسط
المرحوم الباشا محمد العشماوي وعن يمينه د.صالح المهدي فالدكتور محمد الحفني مع مجموعة
من مندوبي الدول العربية من الكويت وليبيا وسوريا والجزائر .

الموسيقى العربية في عهدها الأول :

كانت الخنساء شاعرة الرثاء تغني مرثيها وتغني الأعشى ميمون ابن قيس متغزلا في
"هريرة" إحدى مغنيات الحيرة في أيام النعمان، وكان للحادي دور أساسي في رحلات التجار
وخاصة رحلتي الشتاء والصيف اللتين تعرض لهما القرآن الكريم في سورة "قريش"، إذا على
نغماته تعطع الإبل المفاوز غير شاعرة بثقل حملاتها ولا بطول المسافات .
وعندما جاء الإسلام أقرّ الذوق السليم والصوت الحسن ومن أبرز الشواهد على ذلك قوله تعالى
- الآية 32 من سورة الاعراف - "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من
الرزق "

-والآية 157 من نفس السورة" ويحلّهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم
والأغلال التي كانت عليهم " - وكذلك الآية 4 من سورة المائدة "يسألونك ماذا أحلّ لهم، قل
أحلّ لكم الطيبات" - والآية 87 من سورة المائدة " يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله
لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" ونختم هذه الآيات بالآية 19 من سورة لقمان ان أنكر
الأصوات لصوت الحمير" التي يقول عنها الإمام الغزالي في الإحياء انها تدلّ بمفهومها على
مدح الصوت الحسن.

وقال الشوكاني : وقد صرح ابن عبد السلام في دلائل الأحكام أن المراد بالطيبات في
الآيات السابقات "المستلذات" التي منها الغناء كما قال الشيخ الشنتوت رحمه الله .

وجاء في الحديث الشريف عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن والدها سيدنا أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها في أيام ميناء وعندها جاريتان تدفغان وتضريان والنبى صلى الله عليه وسلم متعش بثوبه، فانتهارهما سيدنا أبوبكر فكشف النبى عن وجهه وقال : "دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد".

كذلك ما رواه الإمام البخاري عن سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من كونه خرج ذات ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهما سيدنا أبو بكر رضي الله عنه فإذا رجل يصلي في المسجد فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع قراءته وقال فيه : من سره أن يقرأ القرآن كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد" ، ثم جلس الرجل يدعو فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له "سل تعطه" فقال سيدنا عمر : " قلت والله لأغدون إليه فلأبشرنه " قال " فغدوت إليه لأبشره فوجدت أبا بكر قد سبقني فبشره فوالله ما سابقته الى خير قط إلا سبقني إليه. وابن ام عبد هو سيدنا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه وقد اشتهر بجمال الصوت".

وجاء في سنن الحافظ ابن ماجه- باب الغناء والدّف / صفحة 611 من الجزء الأول / رقم 1897 عن الربيع بنت معود رضي الله عنها قالت : "دل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة عرسي وعندني جاريتان تتغنيان وتتدبان أبائي الذين قتلو يوم بدر وتقولان فيما تقولان : وفينا نبى يعلم ما في غد فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما هذا فلا تقولوه . ما يعلم ما في غد إلا الله .

ورقم 1898 عن أم المؤمنين السيد عائشة رضي الله عنها قالت "دخل علي سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وعندني جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار في يوم بوغات قالت وليستا بمغنياتين، فقال سيدنا أبو بكر : أبزمور الشيان في بيت النبي صلى الله عليه وسلم وذلك في يوم عيد الفطر ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : "يا أبا بكر إن لكل قوم عيد وهذا عيدنا " .

و1899 عن أنس ابن مالك رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم مر ببعض المدينة فإذا هو بجوار يضرينا بدفوفهن ويتغنين.

نحن جور منب بني النجار يا حبذ محمد من جار

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الله يعلم إنني لأحبكّن "

و1900 عن ابن عباس رضي الله عنه قال : "انكحت عائشة ذات قرابة لها من

الأنصار ف جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أهديتم الفتاة؟ . قالو نعم . قال : ارسلتم معها من يغني . قالت : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الأنصار فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول : : "أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم ."

واشتهر أيضا من الصحابة بجمال الصوت في تلاوة القرآن سيدنا أبو موسي الأشعري

رضي الله عنه ، وقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (على رواية الإمام البخاري) : " يا أبا موسى لقد أوتيت مزارا من مزامير آل داود "

وفي ذلك العصر أهدى المقوقس حاكم مصر جرجير ابن متى جاريتين للنبي صلى الله

عليه وسلم فتزوجا إحاهما وهي ماريا وأهدى الثانية لسيدنا حسان ابن ثابت رضي الله عنه واسمها (سرين) فأصبحت مغنية مشهورة ارتكزت عليها المدرسة الموسيقية وتتلذذ عليه جهامدة الفن في المدينة المنورة .

وجاء في كتاب "الملاهي " عن يعقوب ابن اسحاق عن ابن العباس رضي الله عنه أن

النبي صلى الله عليه وسلم مزّبحسان رضي الله عنه وقد فرش فناء اطنه ومعه اصحابه سماطين (صفيين) وجاريتيه (سرين) معها مزهر وهي تغني (هل عليا ويحكما، ان لهيت من حرج) فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال لا حرج عليك إن شاء الله ."

وتناول موضوع جواز سماع الآلات والنغمات المطربات الإمام الفاضل الجليل الشيخ

عبد الغني النابلسي رحمه الله في كتابه الذي عنوانه (إيضاح الدلالات في سماع الآلات) وقد افتتحه بما يلي : الحمد لله الذي شرح لعباده الأحكام، وأبان لهم الفرق بين الحلال والحرام وجعل

سماح الحق فرضا على الخاص منهم والعام وسماح الباطل حراما عليهم من جملة الآثم،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد ناصر دين الإسلام، وعلى آله وصحبه البررة الكرام ... وجاء
فيه قول الرسول عليه الصلاة والسلام : استماع الملاهي معصية والجلوس عليها فسق والتلذذ
بها كفر بالنعمة ، وأكد أن ذلك مرتبط بالملاهي، فإذا لم يكن فيه لهو فلا يحرم ، ولو كانت
حرمته من حيث ذاته وصورته ومن حيث ما يصدر عن آلات الموسيقى من الأصوات المطربة
لكان كل صوت مطرب حراما وهو باطل لأن أصوات الطيور والشحارير المطربة ليست بحرام
إجماعا، وهكذا كان الفتاء بحرمة الآلات المطربات بشرط التقيّد بالتلهي وهو الإغلاض عن
الطاعات ونسيان الفروض والواجبات والشتغال بالمحرمات والمكروهات كسماعها على الخمر
والزنى فإذا انتقى هذا الشرط انتفت الحرمة .

وتاريخ الموسيقى العربية حافل بعناية الخلفاء والشخصيات بالفن الموسيقي وأهله، فهذا
الخليفة الأموي اليزيد ابن عبد الملك يتعلّق بالمغنية "الغالية" ويفتنن بصوتها ولم يقدر على
شراؤها عندما كان وليا للعهد خوفا من الخليفة أخيه سليمان لإرتفاع سعرها المشط ولما ولي
الخلافة اشترتها زوجته "سعدى" وهدتها له بعد ما قالت له : " هل بقى عليك في الدنيا شيء لم
تتله " فقال : "نعم ، الغالية " فقالت : " هذه هي وقدمتها له فزاد تعلقه بها وغير إسمها بـ "حبابة"
وزاد إكباره لزوجته وأنشد:

فالقمت عصاها واستقر بها النوى كما * قر عينا بالإياب المسافر
وقال : " ماشاء بعد ذلك من امر الدنيا فليفتني ."

ورعت السيد سكينه بنت سيدنا الحسين رضي الله عنه المطرب حنين الحيري من قبلية
بني الحارث وأشرفت على حفل التكريم الذي أقيم على شرفه سنة 102هـ، وامتأ سقف بيتها
بالإشراف والمعجبين بما تسبب في هدمه ومات حنين العجوز عن سن 107 عاما، واعتنت بعده
بالمطرب عبد الله ابن سريح الذي قيل في شأنه : " اصل الغناء مكيان ابن سريح وابن محرز
ومدنيان معبد ومالك " كما قيل فيه : " ما خلق الله بعد داوود النبي صلى الله عليه وسلم، أحسن
صوتا ولا صالح أحد أحذق منه بالغناء.

ومن أبرز خلفاء بني العباس الذين اعتنوا بالموسيقى إبراهيم بن المهدي الذي اغتتم
فرصة الخلاف بين ابني أخيه هارون الرشيد (الأمين المأمون) ليستأثر بالخلافة لنفسه مدة
عامين سنة 202 هـ.

وقد اشتهر إبراهيم بملية للابتكار معاكسا بذلك التيار الفني في عصره لأن أغلب
الموسيقيين والمفكرين كان يؤيدون مدرسة اسحاق الموصلي التي تركز على المحافظة على
التراث وعدم الخروج عن أصوله .

واشتهرت أيضا اخته الأميرة (علية) التي قضت صباها في أحضان الخلافة العباسية فتعلمت وتثقفت ورضعت لبان الفن عن والدتها "مكنونة" فنشأت مغينة مطربة وملحنة بارعة وشاعرة بليغة وكانت بارعة وروعة وهي التي تقول: "ما حرم الله شيئا إلا وقد جعل عنه عوضا. فبأي شيء يحتج عاصيه والمنتك لحرماته" وتقول أيضا " لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط". وقد توسع التراث الموسيقي العربي من التلحين والغناء الى البحث العلمي وفي ما يلي نخبة من أبرز الباحثين في العلوم الموسيقية

- 1- الكندي : وهو فيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي (185-252هـ) وقد أثرى الخزانة العربية بتأليفه العديدة نذكر منها : (الرسالة الكبرى في التأليف)، (رسالة ترتيب النغم الدالة على طبائع الأشخاص)، (رسالة الإيقاع)، (رسالة في مدخل الى صناعة الموسيقى) ...
- 2- ابن المنجم : وهو أحمد ابن يحيى ابن علي (241-300 هـ) ومن أشهر مؤلفاته : (رسالة في الموسيقى أو كتاب النغم)
- 3- الفارابي : وهو أبو نصر محمد ابن طرخان المولود بفراب من بلاد ما وراء النهر (أزبكستان) (257-339هـ) ومن أشهر مؤلفاته : (الموسيقى الكبير / الذي حققه الاستاذ غطاس ونشر بالقاهرة)، (احصاء الايقاع)، (كتاب في النقرة)، (كلام في الموسيقى).

4- ابن سينا : وهو أبو علي الحسن ابن عبد الله ابن سينا المولود بمدينة (أفشنة) بجوار (بوخاري بأزبكستان) (370-428هـ) ومن أشهر مؤلفاته كتاب (النجاة)، كتاب الشفاء/وقد اطلعت عليه مذيلا بخطه في مكتبة السلিমانيّة في اسطنبول)، (دانش نامه) ألفه بالفرسية لعلاء الدولة اثناء اقامته باصبهان (رسالة في تقاسيم الحكمة وبها فصل في الموسيقى) .

5- ابن زيلة : وهو أبو منصور الحسين ابن محمد ابن زيلة الأصفهاني من ابرز تلاميذ ابن سينا تمكن من العلوم والرياضات حتى لقب بالحكيم، نذكر من مؤلفاته : "الكافي" في الموسيقى الذي حققه الأستاذ زكريا يوسف وطبع ببغداد سنة 1964 وتوفي ابن زيلة سنة 440هـ .

6- التيفاشي : هو أحمد ابن يوسف ابن ابي بكر ابن حمدون شرف الدين القيسي التيفاشي (580-561هـ) ، بتيفاش من القرى القريبة من مدينة قفصة في الجنوب الغربي التونسي . ولى القضاء بقفصة ثم انتقل الى مصر حيث قضى بها بقية حياته له كتاب في الموسيقى عنوانه "متعة الأسماع" نقل عنه المؤرخ الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب باشا ما يتعلق بالموسيقى في عهد الحفصيين بتونس ما يلي : فأما اهل افريقية "يعني تونس" فإن

طريقتهم في الغناء مولدة بين طريقي أهل المغرب والمشرق فهي أحفل من طريقة أثل الأندلس وأكثر نغما من طريقة أهل الشرق، وكذلك أشعارهم التي يتغنون بها.

7- صفي الدين الأرموي : وهو عبد المؤمن ابن يوسف ابن فاخر الأرموي (613-

656هـ) ومن أشهر مؤلفاته "كتاب الأدوار" (الرسالة الشرفية)، وقد ألفها بعد سقوط بغداد لتلميذه شرف الدين الجونبي، وتوفي سنة 693هـ .

8- نصر الدين الطوسي : وهو ابو جعفر نصر الدين محمد ابن محمد ابن حسن من

معاصري الأرموي (597-672 هـ) وقد نشر له الأستاذ زكرياء يوسف ما تبقى من رسالته في علم الموسيقى سنة 1964.

9- عبد القادر المراغي : وهو أبو الفضائل كمال الدين عبد القادر المراغي (754 -

838هـ) ومن مؤلفاته : (جامع الألحان) بالفارسية ، (كتاب الموسيقى)، (زبدة الأدوار)، (شرح كتاب الأدوار الأرموي)، (كنز الألحان) ، ومن أحفاده عبد العزيز المراغي الذي كان موسيقيا بارعا وله رسالة (نقاوة الأدوار) في الموسيقى كتبها للسلطان العثماني سليمان القانون (926-974هـ) .

10 - ونذكر أيضا الشيخ أحمد بن عبد الرحمان الموصلي : المعروف بالمسلم

الموصلي المتوفى سنة 1150 هـ، الذي ألف عدة كتب في الموسيقى، وقفنا على الذي عنوانه : (الدر النقي في العلم الموسيقي) .

ومن أبرز الكتب التي اعتنت بالمقامات الموسيقية في العهد العباسي بالخصوص كتاب

(الاجاني) لابي الفرج الاصفهاني الذي قدم فيه عدد من الرمز لبيان الدرجات الصوتية التي أدركها وهي :

- مطلق في مجرى الوسطى

- مطلق في مجرى البنصر

- سبابة في مجرى الوسطى

-سبابة في مجرى البنصر

-وسطى في مجراها

- بنصر في مجراها

- خنصر في مجرى الوسطى

- خنصر في مجرى البنصر

ومن المنفق عليه أن الآلة الموسيقية المعتمدة في هذه الرموز هي (العود)

حيث لم نرى الصفهاني يذكر آلة أخرى للمغنين والملحنين غيرها، وعندما نراجع كتب الفيلسوف أبي نصر الفارابي وأبي علي ابن سينا وابن زيله وصفي الدين الرموي وغيرهم من الباحثين في الموسيقى يتبين لنا الاتفاق على اشتغال العود على أربعة أوتار أساسية وهي : البم، والمثلث والمثنى ، والزير ويفترض هؤلاء الباحثون وترا خمسا يسمونه الزير الثاني وقد أثبتته الرموي وأن تسوية أوتار العود هي كآلاتي :

- مطلق البم مثل سبابه المثنى ، أي عشيران، والحسيني

- سبابه البم مثل بنصر المثنى (العراق والاورج)

- وسطى البم مثل خنصر المثنى أو مطلق الزير (الراست والكردان)

- بنصر البم مثل سبابه الزير البم جهة الأنف (زير كلاه وشاهناز)

- خنصر البم مثل مطلق المثلث (دوكاه)

- المثلث مثل سبابه الزير (دوكاه ومحير)

- سبابة المثلث مثل بنصر الزير (سيكه وجوابها)

- وسطى المثلث مثل خنصر الزير (جهاركه وجوابها)

- بنصر المثلث ويدل على (الحجاز)

- وخنصر المثلث مثل مطلق المثنى

وهذا يبين لنا بوضوح أن العود لم تتغير تسوية أو دوزانه أو تعقيده على حسب التعبيرات

من القرن الأول للهجرة والقرن السابع ميلادي، ما عدى الوتر الخامس الغليظ الذي يسوى الآن

(ياكاه أو قرار جهارك أو قرار بوسلك) حسب المدارس . ويمكن الاطلاع على دراسة هذه

الرموز بتوسع بكتابنا (الموسيقى العربية تاريخها وآدابها) وقد اعتنى بنفس الموضوع كل من

الصديقين الحاج هاشم الرجب من بغداد والدكتور يوسف شوقي رحمه الله من القاهرة .

أما الجانب الثاني من الموسيقى وهو الإيقاع، فقد ألف فيه ابو يوسف يعقوبي الكندي كما اسلفنا

رسالته (اجزاء خبرية في الموسيقى المحفوظة بدار الكتب العامة ببرلين تحت عدد 5503 وأبرز

فيها الثقيل الأول والثاني والمخوري والخفيف والثقيل والرمل وخفيف الرمل و الهزج، كما تناولها

بعده الفارابي وغيره من الباحثين .

ولكن في رأي أن أبرز من تناول دراسة الإيقاعات وفسح المجال لتطويعها هو الخليل ابن أحمد الفراهيدي من خلال التفعيلات العروضية التي جعلها أساس الإيقاع الفني سواء بتكرار كل تفعيلية أو بربط تفعيلات مختلفة بعضها مع بعض بما يكون في تكرارها مع إيقاعات موسعة كما هو الشأن بالنسبة لأغلب أوزان العروض، فأصغر دائرة إيقاعية (تفعيلية) في الشعر العربي هي خماسية نجدها في ثقيلة وزن متقارب (فعولن) وهو وزن الانصراف في الموسيقى الجزائرية، ووزن المجرد في الغناء الصوفي للطريقة العيساوية المغربية نسبة لسيد محمد بن عيسى دفين مدينة مكناس المتوفى سنة 933 هـ، وقد تركزت هذه الطريقة في المغرب العربي الكبير وإفريقيا . ومن الإيقاعات العروضية ما كان سداسيا أو ثلاثيا (مفتعلن) وهو خفيف الرمل الذي تناوله الكندي، وهو متداول في أغلب الأقطار العربية والإسلامية باسم (دارج) أو (خفيف) أو (بورك سماعي)، وقد تولد عنه (الفالس) النمساوي . وباقي التفعيلات التي اعتمدها الخليل كانت سباعية ومنها (الهج) (مفاعيلن) و (الرمل) (فاعلاتن) والرجز (مستعلن) و (السرير) (مفعولات) و (الوافر) (مفاعلاتن) و (الكامل) (متفاعلن). ثم ركب هذه التفعيلات في ما بينها محدثا بذلك أوزانا كبيرة تتراوح بين 12 و 21 دائرة زمنية كما هو مشهور لدى السادة العروضيين والشعراء مثل الخفيف (فاعلاتن مستعلن فاعلاتن) .

ومن الوافر استخرج الموسيقيون وزنا سباعيا سموه (نوخث) عليه الكثير من الموشحات، وإذا كررنا الجزء الأول من التفعيلات تصبح (مفاعلاتن) ذات عشر وحدات وقد جاء عليها وزن السماعي الثقيل المطبق على عدة موشحات منها (لما بدا يتثنى) في مقام النهوند . وإذا كررنا الجزء الأخير من الوزن الأخير (تن) يصبح مفاعلاتن (تن) وهو أصل الوزن الموسيقي العويص ذي الإحدى عشرة وحدة وعليه الموشح المشهور (حبي دعاني للوصال) وإذا تصرفنا في تفعيلية الكامل (متفاعلن وجعلناها (متفاعلاتن) أحدثنا الوزن الموسيقي المعروف بالأقصاق وهو ذو تسع وحدات زمنية وعليه عدة موشحات منها ما عنوانه (ما لحياتي يا رفاقي) لأحمد أبي خليل القباني وهكذا دواليك ... ولو وضعنا جميع التفعيلات في الحاسوب وحرصنا على تطبيق جميع امكانيات التغيير والاستعارة من بعضها البعض لإبتكرنا العدد الكبير جدا من الإيقاعات تستفيد منها الموسيقى والشعر العربيين في تطورها في مناهج الحداثة .

الإنتاج الموسيقي الغنائي

ان ابرز انواع الإنتاج واعرقها هو الارتجال الذي يعتبر انتاجا فوريا يتحاور فيه المؤدي مع سامعية، وهو ابرز عنصر من عناصر الطرب، فالمؤدي بانتاجه والسامع بحركاته والتعبير عن تأثره بالتأوه ويذكر اسم الله جل جلاله، وهذه الظاهرة آخذة في الاندثار وتكاد تكون معدومة

لدى العازفين والمغنين، وعلينا بتلافي هذه الكارثة التي نفقد بها معدومة لدى العازفين والمغنين، وعلينا بتلافي هذه الكارثة التي نفقد بها جانبا هاما من هويتنا الفنية وذلك ببعث دروس لها بمعاهدنا بتوجيه وزارات الثقافة التي تشجيعها بالمسابقات والجوائز، والإذاعات المسموعة والمرئية بتخصيص حصص يومية لها والمهرجانات بادخالها ضمن برامج جميع حفلاتها وتثمين عنصر الابتكار والتتويه بأهلها وفي ذلك يدخل عزف الاستخبارات والتقاسيم بأنواعها وعناء المقام (العراقي) والقصيد العربي والصوت والموال والعروبي وغير ذلك من أنواع الفن المرتجل. بعد ذلك يأتي الإنتاج الموسيقي المؤلف (التوشية/المصدر اليشرف/ السماعي / اللونقا/ التحميلة) بالاستمرار على انتاجها وتطويرها مع افساح المجال لإبتكار قوالب جديدة وطريقة في أن واحد ، وبذلك نبرز مساهمتنا في الحداثة الفنية ونسهم في بناء صرح مجدنا الفني الحديث، ولا بد لنا من الاحتياط من الارتقاء في احضان الحضارات الاجنبية في انتاجنا باسم التجديد .

وكذلك الأمر بالنسبة لانتاجنا الغنائي، فلا بد لنا من الحفاظ على اشكالنا الغنائية العربية مثل (النوبة) في المغرب العربي والقصائد الملحنة والموشحات والأدوار ومختلف أنواع الأغان مع العمل على تطويرها نغما وإيقاعا والعمل على بعث اشكال غنائية حديثة فيها الدسم والخفيف المحرك، ولنغتنم تطلع الغرب الى الاشكال الجديدة لنقدم له تراثنا وانتاجنا باعتراز، ولي تجربة خاصة في هذا المجال سواء في بعث مجموعة كبيرة من التسجيلات في نطاق معهد برلين للموسيقى المقارنة الذي شاركت في تأسيسه في الستينات من القرن المادي أو في تدريس الموسيقى العربية بالمعهد الدولي للموسيقى الغير اوروبية بمدينة البندقية لمدة ست سنوات باعتبار (اسبوعين كل سنة للفنانين) والطلبة الأجانب، فمنهم من شكلوا فرقا تقدم الموسيقى العربية ومسيقاهم للقرون الوسطى، ومنهم من أسسوا معاهد تدرس فننا العربي يؤمها عدد هام من الشباب والفنيات .

ومن المؤسف ان انتاجنا الموسيقي الحديث الذي نسمعه من مختلف الفضائيات العربية يكاد ينحصر في عدد قليل من المقامات والايقاعات والحال ان موسيقانا تزخر بعدد كبير ومتنوع منها كمن كانت له ثروة طائلة ولا يصرف إلا نذرا يسيرا منها ومع طول المدة فسوف نضيع هذه الثروة واعدائنا يترصدوننا ليتبنوها وينسبوا لحضارتهم علينا حينئذ ان تدخل جميع هذه المعاملات والايقاعات أن برامج التدريس بمعاهدنا مع ترسيخ تعليمها بالوسائل السمعية البصرية وعلى مهرجانتنا وفضائياتنا ان تعمل على بثها ومكافأة من يعملون على التوسع في استعمالها واثرائها بابتكاراتهم ضمن انتاجهم وعلى صحافتنا انت تتوه بمجهودات المبدعين الذي يسجلون

بصماتهم في تقدم نهضتنا الفنية ليخلدوا كما خلد الأقدمون الذي عملوا لننعم بتراثهم فنعمل نحن
لنتعم الأجيال القادمة بتراثنا وتلك سنة الحياة .

الآلات الموسيقية :

مما لا شك فيه ان أهم آلة اعتمدت عليها الموسيقى العربية عبر التاريخ هي آلة العود
التي ارتبطت بها عدة اساطير لبيان روسوخها في القدم ، وقد أكد كتاب الاغاني لإبي الفرج
الصفاهاني ان "سائب خاثر" المتوفى في عهد اليزيد ابن معاوية 680 - 683 م، هو أول من
استعمل آلة العود في مصاحبته للغناء في المدينة المنورة بعد ما كان يصطحب بالقضيب ومنه
استمرت هذه الآلة يتناولها العازف والملحن والاستاذ الى عصرنا الحاضر وقد طو هذه الآلة
الموسيقار علي ابن نافع الملقب بزرياب الذي عاش بين القرنين الثاني والثالث هجري /التاسع
ميلادي بني بغداد والقيروان وقرطبة وذلك بأن جعلها من وزن عود استاذه اسحاق الموصلي في
الثلاث، وجعل اوتارها بعضها من مصران شبل الأسد والبعض الآخر من حرير لم يغزل بماء
سخن، وجعل مضراب العود من قوادم النسر عوضا عن الخشب، وزاد له وترا خامس تماشيا له
مع توسع بعض الأصوات . كما طور منصور زلزل المتوفى سنة 791م، طريقة عزف هذه
الآلة بزيادة وسطى ثلاثة تنسب إليه وضعها بني الوسطى القديمة ووسطى الفرص .

وللعود العربي ثلاث أنواع:

- 1- المتعارف في الشرق الأدنى والأوسط وهو الأكثر شيوعا
- 2- العود العربي الشائع بني مقاطعة قسنطينة بالجزائر وتونس
ويشبهه "الكبزا" المعوفة برومانيا ، و"اللوطة" الشائعة في تركيا واليونان ويتميز بعزف هذه الآلة
بلزوم محاكاة الإيقاع مع أداء جمل لحنية في آن واحد .
- 3- الكوينزة الجزائرية، والعود الرباعي المغربي الذي كان معروفا الى الثلاثينات من
القرن الماضي وقدم في مؤتمر القاهرة سنة 1932 قبل أن يغيب عن الممارسة .
وانتقل العود الى بلدان آسيا عن طريق التجار العرب والفتوحات الاسلامية ويقول صديقنا
الفيتنامي الباحث (تران فان كي) الاستاذ بجامعة الصربون في هذا الشأن ان اهل الشرق
الأقصى يقولون ان آلة العود وصلتهم بواسطة جماعة من أهل الصحراء ويجزم بأن يكونوا من
العرب .
وعلى كل فالعود موجود في الصين ويسمى (بي با) وفي اليابان ويسمى (بي وا) وفي
الفيتنام يسمى (تي با) .

كما انتقل العود ايضا الى البلاد الأوروبية عن طريق الاندلس وصقلية ثم عن طريق الاتراك العثمانيين في أغلب البلاد الأوروبية في القرنين المواليين وأدخل عليه تطوير متنوع، وقد ألف للعود عدد هام من الموسيقاريين الاوروبيين نذكر منهم (بيتروتشي) في البندقية سنة 1546، هذه المدينة التي ظهر فيها اربعون كتابا للعود ووصلت موسيقى العود اوجها في القرن السابع عشر وامتازت حينئذا المدرسة الفرنسية مع (فرانسيك) سنة 1600 و (بيزار) 1603 و(بالا)، وفي بريطانيا ألف للعود ما بين سنتي 1540-1620 حوالي ألفي قطعة على يد مجموعة من الفنانين ينقدمهم (جون داوولد)، وفي القرن الثامن عشر استمرت العناية بآلة العود بألمانيا وألف له كل من (فايس) و(باخ) و(هايدن) بينما نلاحظ في الفرق العربية تقلصا لهذه الآلة لتحل مكانها آلة الفيولنتشلو بجذب الأوتار بينما هي تعتبر من عائلة الفيولين (كامنجا)، وقد اسلحنا عليها بالكمنجة الكبيرة ولا يمكن ان تؤدي ما يؤديه العود ولو كانت بعزم بارع مثل الذي للمرحوم حسن الحفناوي او لمحمد غنية .

ومن الآلات الموسيقية آلة القانون، التي اشتهرت بتركيا ومصر وهي تشتمل على ثلاثة أو اربعة دواوين باعتبار ثلاثة أوتار لكل درجة صوتية تعزف بريشتين توضعان في سبابتي اليدين لأداء القرار والجواب في آن واحد، وقد كان تنوع المقامات في هذه الآلة يتم بواسطة التنظيف بياليد اليسرى، ويقول كالم الخلفي في كتابه (الموسيقى الشرقي) أن محمد أفندي العقاد هو اشهر من أجاد هذه الآلة نظرا لطول وجوده مع المطرب عبدو الحامولي في اواخر القرن التاسع عشر، وسرعة هذا الأخير في التنقل بين المقامات أجبرت العقاد على سرعة دوزان القانون في مدة لا يباريه فيها خلفه.

ويقصد بالرئيس الحكيم ابن سينا صاحب كتاب القانون في الطب ويقول بعضهم انه مخترع آلة القانون ؟ .

الرباب : وردت هذه الكلمة اسما للفتيات في الاشعار العربية القديمة ثم ذكرها الخليل ابن احمد المتوفى سنة 175 هجرية حيث يقول ان العرب كانوا يغنون اشعارهم على صوت الرباب، وكلها كل من الحاحظ في مجموعة الرسائل وابن سينا في الشفاء وابن زبلة في مصنفه "الكافي" و"الفارابي" في "الموسيقى الكبير"، يقول النابلسي في هامش رسالته : الربابة آلة موسيقية عربية قديمة نشأت في الجزائر وتونس ومراكش مثل قدمها في العراق والاقطار القريبة منه.

وفعلا فالرباب لم يستعمل في الموسيقى التقليدية العربية إلا في هذه الأقطار مع عثورنا على صور ورسوم اسبانية تثبت وجودها بالأندلس، وهي ذات وترين تعرف بجذب أصابع اليد اليسرى من اليمين الى اليسار، وهنالك من الرباب ما يستعمل في الغناء الشعبي في الأقطار الشرقية العربية .

الآلة الموالية هي آلة الناي لقد تعرضت الكتب القديمة الى آلة النفخ فبينت احداث الصوت بها مثلما قال ابو نصر الفرابي يحدث فيها النغم بتسرب الهواء في تجويفاتها شيئا فشيئا، وهي آلة من قصب ذات تسع عقد بها جميع الدرجات الصوتية من الموسيقى العربية وغيرها، وهي تعتبر اقدم آلة موسيقي إذا يقال ان سيدنا داوود عليه السلام كانت له نايات يضعها في مكان خاص من نافذة بيته تحدث انغاما مطربة عذبة عند تغيير مجرى الهواء في الساعات الأخيرة من الليل ، ومن ذلك استمرت قداسية هذه الآلة وقد اعتمد عليها عدد من الطرق الصوفية في الهند وبلاد فارس ثم لدى الطريقة المولوية التركية نسبة الى مولانا جلال الدين الرومي المتوفى سنة 672 هـ، دفين مدينة (قونيا)، وقد ألفينا بصرحيه مجموعة كبيرة من هذه الآلة تعتبر متحفا فريدا لها . يأتي بعد ذلك آلات الإيقاع ومن اشهرها آلة الرق أو الطار التي اشتهر بها الشيخ الصوفي (الششتري) المتوفى سنة 668 هجرية، والآلة الثانية هي آلة النقارات أو النغرات، وهي عبارة عن طبلتين صغيرتين كل منهما مغطاة بجلد يختارفي تونس من جلد البعير .

من أبرز الإنتاج الغنائي التقليدي العربي الذي تشترك فيه العديد من البلدان العربية: (الموشح) فقد ظهر الموشح بالأندلس على يد مقدم ابن مغفر القبري نسبة الى مدينة "قبرة" شارع الدولة المرينية خلال القرن الثالث للهجرة / التاسع ميلادي، وهي نتيجة للاتصال بني حضارتي المشرق والمغرب ولما وصل اليه الأدباء والموسيقيون من تقنن وسمو ذوق وهو من النظم المغرب عدا ما قد يضاف في آخره مما يعرف بالخرجة ويكون بالعامية وحتى بالإسبانية (الاندلسية) .

ويتركب الموشح من مطلع أو مذهب وأقسام تغاييره في القافية يتراوح عدد أبياتها بني الثالثة والسبعة ترجع في نهايتها الى قافية المطلع وقد برز عدد كبير من الوشّاحين في الأندلس منهم : أحمد المشهور بالأعمى الطليطلي المتوفى سنة 520 هـ 1126 م ، ومنهم ابراهيم ابن سهل

الاشبيلي المتوفى سنة 649 هـ 1251م، أبو بكر محمد ابن عبد الملك المعروف بابن زهر من مدينة اشبيلية، توفي بالمغرب سنة 595 هـ 1199م، وقد كان أديبا وطيبا بارعا حتى وصف بوحيد دهره في الطب. لسان الدين ابن الخطيب الملقب بذي الوزارتين في غرناطة المتوفى سنة 776 هـ 1375م، له مؤلفات في التاريخ والجغرافيا والرحلات والعلوم والاخلاق والدين والنبات والطب والبيطرة والسياسة والموسيقى والتوشيح، منها " جيش التوشيح" المطبوع بتونس سنة 1960 .

وقد لَحَّنت هذه الموضحات على أوزان النوبات المعروفة حتى الآن في أقطار المغرب العربي ثم انتقلت الى المشرق العربي وأدخلت عليها قفلات تركية وفارسية ولحَّنت على أوزان أكثر تنوعا مما عرف في المغرب، وقد وضعت عليها رقصة تعرف برقصة "السماح". ومن أشهر الواشاحين الشرقيين ابن سماء الملك المصري صاحب كتاب "دار الطراز" المتوفى سنة 608هـ، 1212م

وتناول الموشح أغلب الشعراء في مختلف البلاد العربية نذكر منهم من تونس الشيخ محمد قابادو، ومن العراق الشاعر السيد سعيد حبوبيوم من مصر أمير الشعراء أحمد شوقي ومن حيث التلحين فان اغلب المدارس العربية تتناول غناء القفل الأول في لحن معين يليه الأبيات في لحن مشترك، ثم القفل الثاني على لحن معين يليه الأبيات في لحن مشترك ثم القفل الثاني على لحن القفل الأول، وبالنسبة للموشح الأقرع تتناول غناء الأبيات في لحن موحد يليه القفل في لحن مغاير ويسمى الطالع . (انظر موسيقى المشحات في الكتب الأتية 1 - من كنوزنا (سوريا)2- الموشحات الأندلسية (لبنان) 3- التراث الموسيقي العربي (مصر) 4- التراث الموسيقي التونسي (تونس) .

وقد لاحظنا في تونس وفي تلمسان بالجزائر تلحين الموشح بأكمله خارج النوبة، وحينئذ تشترك أقاله في لحن موحد وتتغير كل مجموعة من الأبيات عن الأخرى في المقام - ويجري على هذا النسق تلحين الزجال، ونذكر من ذلك موشح "شق جيب الليل عن نحر الصباح" (في مقام الصبهان) للصفى الحلي، والزجل (آه على ما فت ناري لها وقود) (في مقام راست الذيل) لإبن عتروز وقد اعتنى المجمع العربي للموسيقى فور تأسيسه في بداية السبعينات من القرن الماضي بالموشحات، فنظم كل منهم بثلاثة موشحات قبل منها ثمانية في الدورة الأولى بحصيلة أربع وعشرين موشحا شاركوا بها في حفل أقيم بتونس وفاز بالجائزة الأولى الموسيقار حليم الرومي من لبنان كما نظم مسابقة في تأليف السماعي من المعزوفات التقليدية فاز فيها

الموسيقار اللبناني الأستاذ عبد الغني شعبان، وأخرى في ارتجال العزف فاز فيها عازف القانون التونسي الأستاذ حسن الغري. وعلينا أن نكرر مثل هذه المسابقات في مختلف أنواع الإنتاج الموسيقي لنجابه مانسمعه حاليا من أغان ضعيفة التأليف والتلحين وحتى الأداء، وبذلك نتلافى ما قد يحصل لنا من ضعف فني لا قدر الله .

الطب والموسيقى :

تؤكد الكتب القديمة ان للموسيقى علاقة متينة بالفحوص الطبية وحتى بالعلاج فمن ذلك ما ذكره استاذنا المرحوم المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب باشا الذي يؤكد ان بعض دكاكين سوق الفكة بتونس قرب جامع الزيتونة كانت خاصة بالأطباء وقد كانوا يعزفون على العود نغمات متنوعة أمام المرضى ثم يقررون وجهة نظرهم في المرض ويعطون الدواء الشافي، ابتداء من مدى تأثر المريض بهذه النغمة أو تلك .

أما في الأمراض العصبية والنفسية فدور الموسيقى مسلم به قطعاً، وقد كانت لنا بتونس أوقاف خاصة لإقامة حفلة موسيقية غنائية بالمرستان (المستشفى الخاص بهذه الأمراض). وهو وقف (عزيزة عثمانة زوجة ملك تونس : حمودة باشا المرادي) .

وتنسب أغلب المؤلفات القديمة تأثير النغمات على المرض المعين بارتباطها بإيقاع مخصوص فمن ذلك يقول فيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب الكندي نغمات المثني (الوتر الثاني للعود مناسبة للتقيل الأول والثاني (وهما إيقاعان) وهي مقوية للدم محركة له مسكنة للسوداء مطفية لها .

وجاء في رسالة اخوان الصفاء في هذا الموضوع قولهم : فإذا ألفت النغمات في الألحان المشاكلة لها واستعملت تلك الألحان في أوقات الليل والنهار المضادة لطبيعتها طبيعة الأمراض الغالبة، والعلل العارضة، سكنتها وكسرت حذتها، وخففت على المريض آلامه لأن الأشياء المتشاكلة في الطباع اذا كثرت واجتمعت، قويت افعالها وظهرت تأثيراتها وغلبت اصداها كما يعرف الناس مثل ذلك في الحروب والخصومات. وقد تبين بما ذكرنا طرف من حكمة الحكماء الموسيقيين المستعملين لها في المارستانات في الأقاوت المضادة لطبيعة الأمراض والاعراض والاعلال.

ويقول الشيخ أحمد بن عبد الرحمان القادري الرفاعي في ما ترجمه عن رسالة الاستاذ عبد المؤمن البلخي المؤلفة بالفرسية : "اعلم ان هذه المقامات الاثني عشرة مركبة من الابرع طبائع نارية ومائية وترابية وهوائية . فالرمت ناري ويرجه الحمل وساعته الزهرة في الفلك. يوم

الجمعة لوه من الشعب النيريز ويقال له اللغة الفارسية "مايه" و "بنجكاه" وقال له "برغك" وهو أول المقامات

ويسمي بقية المقامات على هذا النحو فينسب الرست والبوسلك والشاهناز بكونها نارية والحسيني والمقابل والنوا بكونها ترابية، والعشاق والمخالف والوريز بكونها مائية والعراق والحجازي والزنكولاه بكونها هوائية، وما تشعب من كل مقام لحقه في طبيعته .
ويزيد على ذلك في بحث آخر فيقول : وأعلم ان لكل حرف طبيعة أيضا فالألف والهاء والطاء والميم والفاء و الشين والذال (نارية)، ويسير على هذا النحو مع بقية الأحرف وربطها بالبروج مثل المقامات.

وبناء على ما تقدم خصص العرب في المشرق والمغرب لكل وقت من اليوم مقاما أو نغمة معينة، وقد استعملالمغرب العربي والأندلس كلمة (طبع) دلالة على المقامات الموسيقية وما ذلك إلا اعتبارا لما يلائم طبع الإنسان ومزاجه من هذه المقامات في اوقات معينة من اليوم .

وقد أثبت العلم الحديث النظريات القديمة التي تجلج للموسيقى تأثير على الفحوص الطبية والعلاج وقد قام احد أطباء فرنسا بتجربة التبنيج بواسطة الموسيقى، وكد الدكتور (طوماس) في مؤلفاته ومحاضراته العديدة أن تجاربه أثبتت دور الموسيقى الآن في العلاج وينقل عن ابن سينا قوله : ان العلاج يكون إما بالصوت (الموسيقى) أو بالنبات او بالسكين (العمليات الجراحية) وقد قمت شخصا بتجارب في الموضوع علاجت بها عدد من الشبان.

واعتبارا لجدية الموضوع فقد خصصت له المنظمة العالمية للتربية الموسيقية لجنة خاصة أوكلت رئاستها الى الباحثة الارجنطينية الأستاذة (فيولتار دي فنزه) تقديرا للمجهودات المبذولة في هذا الميدان بالأرجنتين الذي أسس مركزا قوميا للعلاج بالموسيقى، ونظم عدة مؤتمرات عالمية في الموضوع .

والكثير من الدول الاوروبية والأمريكية سائرة في هذا الطريق أشواطا كبيرة، والأجدر بنا ان ننحو نحوها نفي البلدان العربية اعتبار لما خلفه لنا اطباؤنا وفنانونا من مخطوطات زاخرة بالمعلومات التي تؤكد علاقة الفن بعلاج الإنسان وحتى الحيوان .